عمدة المحدثين الشيخ محمد خواجه شريف – رحمه الله – وجهوده في نشر علوم الحديث

د. سيد جميل الدين *

الملخص:

كان الشيخ محمد خواجه شريف واحدًا من أجلّة العلماء الذين أنجبتهم منطقة الدكن، وعُرف بشدة عنايته بعلم الحديث النبوي، وقضى معظم حياته في خدمة السنة وعلومها تدريسًا وتأليفًا. وكانت له جهود بارزة في نشر علوم الحديث، إلى جانب إسهاماته في تأسيس المدارس والمعاهد العلمية في مناطق مختلفة من جنوب الهند، التي تخرج فيها عدد من العلماء والباحثين المشتغلين بالدراسات الإسلامية والحديثية.

ومع هذه الجهود، لم تحظ شخصيته في كتابات الباحثين بالعناية التي تتناسب مع إسهامه العلمي، وهو ما دفع الباحث إلى اختيار هذا الموضوع والتعريف بحياته وآثاره ومساهماته في إثراء المكتبة الحديثية.

وقد قُسّمت الدراسة إلى مبحثين: يتناول الأول جوانب من سيرته الذاتية والعلمية، بينما يعرض الثاني أهم مؤلفاته وترجماته وأعماله في علوم الحديث، مع الوقوف على بعض ملامح منهجه في التدريس والتأليف.

* نائب المدير بدار الحديث، الجامعة النظامية، حيدرآباد، الهند.

الكلمات المفتاحية :محمد خواجه شريف, عمدة المحدثين, علوم الحديث, جنوب الهند, الجامعة النظامية, الحديث النبوي.

المبحث الأول: جوانب من سيرته الذاتية والعلمية

المطلب الأول: اسمه وولادته وألقابه

اسمه محمد خواجه شريف.. وُلد في الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٣٥٩هـ, بقرية بوتال بلي في مديرية محبوب نغر بولاية آندهارا براديش, وهي المنطقة التي أصبحت اليوم ضمن ولاية تلنغانا.

وعرف بعدة ألقاب علمية, منها :عمدة المحدثين, وأشرف العلماء, ومحدث الملة, كما اشتهر بين العامة والخاصة بلقب شيخ الحديث؛ لتوليه هذا المنصب في الجامعة النظامية بمدينة حيدرآباد.

ينتهي نسبه من جهة أبيه ينتهي إلى السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها, وأنه ينتسب من جهة أمه إلى الإمام الحسين رضي الله عنه, وأن عادة أهل الدكن جرت على إلحاق كلمة «شريف» بأسماء المنتسبين إلى السادات من جهة الأم.

أما اسم «خواجه» فقد سُمّي به تيمّنًا بالولي المعروف في الدكن السيد محمد خواجه غيسودراز –رحمه الله.[1]

المطلب الثاني: أسرته

ينتمي الشيخ محمد خواجه شريف إلى أسرة علمية ودينية عُرفت في منطقة الدكن بالاهتمام بالعلوم الإسلامية, وقد ظهر فيها عدد من العلماء وأهل الدين.

وكان والده الشيخ محمد شهاب الدين من رجال العلم والدين, وقد أقام مدة بالقرب من تشار مينار بمدينة حيدرآباد لتحصيل العلوم المتداولة, وصحب العلماء والمشايخ, كما بايع شيخ الإسلام محمد بادشاه الحسيني, صاحب الزاوية القادرية في مدينة حيدرآباد.

وكان ملمًّا باللغة التلغوية, وله معرفة جيدة باللغة الفارسية, كما كان يعقد في بيته بقرية بوتال بلي حلقات لتدريس العلوم الدينية واللغوية ونشر الوعي الديني والعلمي.

وتوفي يوم الجمعة, الثالث عشر من ذي الحجة سنة ١٣٨٦هـ, وخلّف ثلاثة أبناء: الشيخ محمد شريف, والشيخ محمد خواجه شريف – صاحب هذه الترجمة – والمفتي محمد محبوب شريف.[2]

المطلب الثالث: طلبه للعلم

بدأ الشيخ محمد خواجه شريف دراسته الابتدائية عند أحد معلمي قريته بوتال بلي . وبعد انتقال أسرته إلى مدينة حيدرآباد أقامت في الحي المعروف بـكوشه محل, فالتحق بإحدى المدارس الحكومية هناك.

ثم التحق بالجامعة النظامية سنة ١٩٥٠م, ودخل الفصل الرابع بإيعاز من أخيه الأكبر محمد شريف, ليواصل تحصيله في التفسير والحديث والفقه واللغة العربية وغيرها من العلوم الإسلامية.

وخلال دراسته في الجامعة وقعت أزمة تتعلق بمحاولة تحويل الجامعة النظامية إلى "الكلية الشرقية". وقد عارضت جمعية الطلبة هذا التوجه, ونظمت مظاهرات واحتجاجات, وكان محمد خواجه شريف حينئذ أمينًا للجمعية. ولكن هذه الاحتجاجات أسهمت في إفشال المشروع, غير أنها أدت أيضًا إلى فصل بعض أعضاء جمعية الطلبة من الجامعة, وكان المترجَم له من بينهم. ويرى الباحث في موقفه هذا دليلًا على حرصه على المحافظة على الطابع الإسلامي والديني للجامعة النظامية.

وكان من أقرانه عدد من العلماء, منهم الشيخ الدكتور محمد سلطان محيي الدين, ومحمد محبوب علي, والشيخ برهان الدين, ومحمد عباس شريف.

أشهر شيوخه في الحديث

أخذ الشيخ محمد خواجه شريف الحديث والعلوم الإسلامية عن عدد من علماء الجامعة النظامية وغيرهم, ومن أبرزهم:

١. الشيخ الفقيه سيد محمود المعروف بأبي الوفاء الأفغاني, رئيس مجلس إحياء المعارف النعمانية, وشيخ الفقه بالنيابة في الجامعة النظامية سابقًا.

٢. الشيخ المفتي سيد محمود –رحمه الله – شيخ الجامعة النظامية وخطيب الجامع الكبير «مكة مسجد» بمدينة حيدرآباد.

٣. المفتي محمد عبد الحميد, شيخ الجامعة النظامية وعضو مؤسس في هيئة قانون الأحوال الشخصية المسلمة لعموم الهند.

٤. الشيخ المحدث محمد حسين النقشبندي, شيخ الحديث في الجامعة النظامية سابقًا.

٥. الشيخ المحدث الحاج منير الدين, شيخ الحديث في الجامعة النظامية وخطيب جامع مكة بمدينة حيدرآباد.

٦. الشيخ الأديب سيد طاهر الرضوي, صدر الشيوخ بالجامعة النظامية.

رحمهم الله جميعًا.[3]

المبحث الثاني: عمدة المحدثين في مجال التأليف والتصنيف

كرّس الشيخ محمد خواجه شريف جانبًا كبيرًا من حياته لخدمة علوم الحديث تدريسًا وتأليفًا, إلى جانب نشاطه الديني والإصلاحي. وقد ألّف وترجم عددًا من الكتب والرسائل, يدور معظمها حول السنة النبوية والفقه والدراسات الإسلامية.

ومن أهم أعماله ما يأتي:

١. "ثروة القاري من أنوار البخاري"

يُعد كتاب ثروة القاري من أنوار البخاري، المؤلف باللغة الأردية، من أبرز أعمال الشيخ محمد خواجه شريف في مجال الحديث النبوي.

وهو شرح لـصحيح الإمام البخاري، نشأ في الأصل من الدروس التي كان الشيخ يلقيها أثناء تدريسه صحيح البخاري في الجامعة النظامية، حيث تولى منصب شيخ الحديث مدة تزيد على ربع قرن.

وكان طلاب مرحلة الفاضل يدوّنون دروسه العلمية عامًا بعد عام، ثم جُمعت هذه الدروس وصدر منها كتاب ثروة القاري من أنوار البخاري عن مجلس إشاعة العلوم بالجامعة النظامية.

ويقع المطبوع منه، بحسب الباحث، في تسعة مجلدات صغيرة الحجم، تسبقها مقدمة مطولة غنية بالفوائد. غير أن الشيخ توفي قبل أن يتمكن من إكمال الشرح.

ويمتاز الكتاب، وفق تحليل الباحث، بعدة خصائص، منها:

- الجمع والتوفيق بين الأحاديث التي يبدو بينها التعارض.
- استنباط المسائل الفقهية، بما في ذلك عدد من القضايا المعاصرة.
- العناية بالتحليل اللغوي.
- الاهتمام بتراجم الرواة بالرجوع إلى كتب الرجال.

- بيان أحكام الأحاديث وعللها.
- عرض المذاهب الفقهية وأدلتها, مع عناية خاصة بأدلة المذهب الحنفي.
- شرح غريب الألفاظ.
- معالجة الإشكالات المتعلقة بالإسناد والمتن.

ومن ثم يمثل هذا الشرح جانبًا مهمًا من جهود الشيخ في خدمة صحيح البخاري ونقل الدراسات الحديثية إلى القراء الناطقين بالأردية.

٢. تعريب كتاب"الكلام المرفوع فيما يتعلق بالحديث الموضوع"

تعددت مؤلفات العلماء في موضوع الأحاديث الموضوعة, واختلفت مناهجها بين الاختصار والتوسع.

وكان من هذه المؤلفات كتاب الكلام المرفوع فيما يتعلق بالحديث الموضوع لشيخ الإسلام أنوار الله الفاروقي, الذي تناول فيه مؤلفه قرائن الوضع والأصول والضوابط التي يعتمد عليها المحدثون في الحكم على الروايات.

وينقل الباحث أن مؤلف الكتاب ناقش بعض الضوابط التي يستند إليها المشتغلون بعلم الحديث, وتعقب من تسرع في الحكم على الأحاديث من غير استناد كافٍ إلى التحقيق العلمي.

وقد رأى الشيخ محمد خواجه شريف أهمية هذا الكتاب, فقام بنقله إلى اللغة العربية.

وقال في مقدمته, بحسب النص الذي أورده الباحث:

"هذا كتاب عارف بالله شيخ الإسلام أنوار الله الفاروقي... بحث فيه مسألة قطع الحكم بوضع الحديث وقرائنه, وأحاط بجميع جوانبه, واستدل على ما جاء به من البحوث بالآثار وأقوال المحدثين, وقام بتعليق نفيس على ما توغل فيه العلامة ابن الجوزي في ضمن الموضوعات, وأنه ألّفه أثناء إقامته بالمدينة المنورة".

ويعد هذا التعريب شاهدًا على نشاط الشيخ في نقل التراث الحديثي المكتوب في بيئة الدكن إلى العربية وإتاحته لدائرة أوسع من الباحثين.

٣. ترجمة "زجاجة المصابيح"

ألّف الشيخ سيد شاه عبد الله النقشبندي, المعروف بمحدث الدكن, كتاب زجاجة المصابيح, وهو من المجاميع الحديثية التي رتب فيها المؤلف الأحاديث على الأبواب, وجردها من الأسانيد, مع عزو الأحاديث إلى مصادرها.

ويتكون الكتاب, بحسب الدراسة, من خمسة أجزاء كبيرة في أصله, وجمع فيه مؤلفه الأحاديث التي استدل بها علماء المذهب الحنفي, على نسق قريب من كتاب مشكاة المصابيح.

ولما كانت الحاجة قائمة إلى نقله إلى اللغة الأردية ليستفيد منه جمهور أوسع، بدأت ترجمته في حياة المؤلف. ثم توقف العمل بعد إنجاز تسعة أجزاء، فعُهد إلى الشيخ محمد خواجه شريف باستكمال الترجمة.

وتولى الشيخ ترجمة الكتاب من الجزء التاسع إلى الجزء الثاني والعشرين، ابتداءً من باب العتق حتى نهاية الكتاب، ثم صدر العمل عن مجلس إشاعة العلوم بالجامعة النظامية.

٤. "الإمام الأعظم إمام المحدثين"

يُعد كتاب الإمام الأعظم إمام المحدثين من أبرز مؤلفات الشيخ محمد خواجه شريف.

ويذكر الباحث أن الشيخ ألّفه سنة ٢٠٠٣م، وطُبع عن مجلس إشاعة العلوم بالجامعة النظامية بمدينة حيدرآباد، ويقع في ١٥٥ صفحة.

وتناول فيه مكانة الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت – رحمه الله – في علم الحديث، وسعى إلى إثبات منزلته بين المحدثين، ومناقشة الآراء التي تقلل من شأن مروياته الحديثية.

كما تحدث عن مسألة لقاء أبي حنيفة لبعض الصحابة، وعن الخلاف في ثبوت وصف التابعي له، وعرض جملة من الروايات والأقوال التي استدل بها على موقفه.

وقد قال الشيخ إن الإمام أبا حنيفة ولد سنة ثمانين للهجرة, وإنه رأى عددًا من الصحابة, وذكر منهم أنس بن مالك, وعبد الله بن أبي أوفى, وعبد الله بن الحارث, وعبد الله بن أنيس, وأبا الطفيل عامر بن واثلة, وعائشة بنت عجرد.[4]

كما ذكر عددًا من الروايات التي نسبها إلى الإمام أبي حنيفة عن الصحابة, ومنها حديث:

"طلب العلم فريضة على كل مسلم".

وحديث:

"الدال على الخير كفاعله, وإن الله يحب إغاثة اللهفان".[5]

ثم ناقش قول من ذهب إلى أن رواية أبي حنيفة عن الصحابة لم تثبت, وبيّن أن عبارة «لا يصح» في اصطلاح المحدثين تتعلق بالحكم على الإسناد ولا تقتضي بالضرورة الحكم بوضع الحديث.

كما ناقش ما نُسب إلى ابن خلدون من أن أبا حنيفة لم يصح عنده سوى سبعة عشر حديثًا, وفسر العبارة بما يتوافق مع الموقف الذي يدافع عنه في الكتاب.[6]

ويستدل الشيخ كذلك بكتب ظاهر الرواية, وهي :*الجامع الكبير, والجامع الصغير, والسير الكبير, والسير الصغير, والزيادات, وزيادة الزيادات*, ويرى أن ما اشتملت عليه من أحاديث وأدلة يكشف عن سعة اطلاع الإمام أبي حنيفة على السنة.[7]

دفاعه عن مكانة الإمام أبي حنيفة في الحديث:

خصص الشيخ محمد خواجه شريف مساحة واسعة للرد على من رأى أن قلة الرواية عن أبي حنيفة دليل على ضعف منزلته في الحديث.

ويقرر، وفق ما ينقله الباحث، أن الإمام أبا حنيفة كان واسع الاطلاع على الحديث، وأن قلة مروياته ترجع إلى اشتغاله بالفقه والاستنباط.

ويستشهد في هذا السياق بما نسبه إلى الذهبي من أن قلة الرواية لا تستلزم قلة المحفوظ، ويقارن ذلك بقلة ما رُوي عن عدد من كبار العلماء قياسًا بما بلغهم من الحديث.

كما يناقش السؤال عن عدم تخريج البخاري ومسلم للأحاديث عن أبي حنيفة، ويرى أن عدم التخريج لا يدل في ذاته على عدم اعتبار العالم من أهل الحديث؛ لأن الصحيحين لم يستوعبا جميع الأحاديث الصحيحة ولا جميع المحدثين.

ويشير إلى أن عددًا من المحدثين الآخرين أخرجوا مرويات مرتبطة بأبي حنيفة، ومنهم الترمذي والنسائي وابن أبي شيبة وعبد الرزاق والطحاوي والبيهقي.

ويدخل هذا النقاش كله ضمن الغرض الأساسي للكتاب، وهو الدفاع عن المكانة الحديثية للإمام أبي حنيفة من منظور المؤلف.[8]

الخاتمة

تكشف سيرة الشيخ محمد خواجه شريف عن شخصية علمية كرست جانبًا كبيرًا من حياتها لخدمة الحديث النبوي وعلوم الشريعة، وجمعت بين التدريس والتأليف والترجمة والعمل الديني والإصلاحي.

وقد كان الشيخ مدرسًا ومحدثًا ومربيًا، وارتبط اسمه على وجه الخصوص بالجامعة النظامية في حيدرآباد، حيث تولى تدريس الحديث فترة طويلة وأسهم في تكوين أجيال من الطلاب.

كما تظهر مؤلفاته اهتمامًا واضحًا بخدمة التراث الحديثي وتقريبه إلى الناطقين باللغة الأردية، إلى جانب نقل بعض الأعمال إلى العربية.

ويمثل ثروة القاري من أنوار البخاري جهده الأبرز في شرح صحيح البخاري، بينما يكشف تعريبه لكتاب الكلام المرفوع فيما يتعلق بالحديث الموضوع عن عنايته بنقل الدراسات الحديثية إلى العربية، وتظهر ترجمته لـزجاجة المصابيح اهتمامه بخدمة النصوص الحديثية المتداولة في الدكن.

أما كتاب الإمام الأعظم إمام المحدثين فيمثل جانبًا من جهوده في الدفاع عن الإمام أبي حنيفة وإبراز مكانته في الحديث من وجهة نظر الشيخ.

وبذلك تتوزع إسهامات محمد خواجه شريف بين التعليم والتأليف والترجمة والدفاع عن الموروث العلمي الذي انتمى إليه، مما يجعل دراسة آثاره مدخلًا مهمًا للتعرف إلى جانب من تاريخ الدراسات الحديثية في جنوب الهند.

نتائج البحث

توصل الباحث إلى جملة من النتائج، من أبرزها أن الشيخ محمد خواجه شريف كان من العلماء البارزين في مجال الحديث النبوي في شبه القارة الهندية، وأنه شغل مناصب علمية في الجامعة النظامية، وكرس حياته للتدريس والتأليف في علوم الحديث.

كما يرى الباحث أن كتاباته أسهمت في الدفاع عن حجية السنة وإزالة بعض الشبهات المتعلقة بالأحاديث النبوية، وأن كتابه الإمام الأعظم إمام المحدثين يمثل واحدًا من أهم أعماله في الدفاع عن الإمام أبي حنيفة ومكانته الحديثية ضمن الكتابات الأردية.

الهوامش:

١.انظر: محمد طاهر خان الخلجي، *مآثر شيخ الحديث*، مركز إحياء الأدب الإسلامي، المعهد الديني العربي، حيدرآباد، مايو ٢٠١٩م، ص ٩–٢٠.

٢. انظر: محبوب شريف نظامي، *بيسويں صدى ميں دكن كى علمى، دينى، اصلاحى و ادبى شخصيتيں*، المجلد الثاني، رحمت إيجوكيشنل أند ويلفير سوسائتي، حيدرآباد، الهند.

٣. المصدر السابق.

٤. محمد خواجه شريف، *الإمام الأعظم إمام المحدثين*، ص ١٢.

٥. المصدر السابق، ص ٩.

٦. المصدر السابق، ص ٣٦–٤٤.

٧. محمد خواجه شريف، *الإمام الأعظم إمام المحدثين*، مجلس إشاعة العلوم، الجامعة النظامية، حيدرآباد، ٢٠٠٤م، ص ١٤.

٨. المصدر السابق، ص ٣٠–٤٠.

المصادر والمراجع:

- محمد نديم الله خان، الشيخ محمد خواجه شريف: حياته وأعماله – دراسة نقدية، رسالة جامعية مقدمة إلى الجامعة العثمانية، ٢٠٢٢م.
- محمد طاهر خان الخلجي، مآثر شيخ الحديث، مركز إحياء الأدب الإسلامي، المعهد الديني العربي، حيدرآباد، ٢٠١٩م.
- محبوب شريف نظامي، بيسويں صدى ميں دكن كى علمى، دينى، اصلاحى و ادبى شخصيتيں، المجلد الثاني، رحمت إيجوكيشنل أند ويلفير سوسائتي، حيدرآباد.
- محمد خواجه شريف، الإمام الأعظم إمام المحدثين، مجلس إشاعة العلوم، الجامعة النظامية، حيدرآباد، ٢٠٠٤م.